رثاء الجارم

للأستاذ محمود غنيم

« ألقيت في حفلة التأبين التي أقامتها جامعة دار العلوم للمغفور له علي الجارم بك »

عرش ينوح أسى على سلطانه ... قد غاب كسرى الشعر عن إيوانه
طوت المنون من الفصاحة دولة ... ما شادها هارون في بنذانه
في ذمة الفن المقدس مازن ... لقي الحمام على صدى ألحانه
لما تهامست الصفوف بنعيه ... كاد الفؤاد يكف عن خفقانه
ساءلت حين قضى علي فجأة : ... هل حل يوم الحشر قبل أوانه ؟

سقط المؤبن وهو يسمع شعره ... من ذا يؤبنه بمثل بيانه ؟ !
وصف الزمان لنا وجاد بنفسه ... لتكون برهاناً على حدثانه
قال احذروا قدر الحمام معززاً ... بحياته ما قاله بلسانه
لا تعجبوا من موته في حفله ... إن الشجاع يموت في ميدانه
بطل المنابر ما له من فوقها ... يهوى وكم عرفت ثبات جنانه؟
إن خانه ضعف الشيب فطالما ... قهر المنابر وهو في ريعانه
كلا لعمري لم يخنه مشيبه ... لكن حس المرء من خؤانه
لم يجنها إلا رقيق شعوره ... والرهف الحساس من وجدانه
حر قضى متأثراً ببيانه ... ولكم جنى فن على فنانه

يا شاعراً طار اسمه بقوادم ... من عبقريته ومن إتقانه
ما دار يوماً للصغار بعينه ... أو دار للزلفى برقة شانه
والمجد منه زائف ومحمض ... لا تخلطوا بلوره بجمانه
ما كل لماع ببرق ممطر ... البرق غير الآل في لمعانه
عرش القوافي بعد موتك شاغر ... يا طول ما بلقاه من أشجانه
قل للذي يرمى إليه بلحظه ... هذا مجال لست من فرسانه
لا أم حكمك في الورى جار وما ... من حيلة للعبد في جريانه
الطير ملء الروض أشكالا فما ... للسهم لا يصمى سوى كروانه ؟
يمضي العظيم من الرجال فينبرى ... لمكانه خلفاء من أقرانه
والشاعر الموهوب فلتة دهره ... إن مات أعيا الدهر سد مكانه

قل للرياض قضي علي نجبه ... ولطيرها الشادي على أفنانه
الشاعر الفرد الخلق في السما ... بجناحه قد كف عن طيرانه
بكت اللآلئ بعده لألمها ... وتساءل الياقوت عن دهقانه
وتساءل التاريخ عمن شعره ... كان السجل لحادثات زمانه
بكت الكنانة في علي شاعراً ... جعل اسمها كالنجم في دورانه
عف اللسان مؤدب الأوزان لم ... يتلق وحي الشعر من شيطانه
بل كان نفح الخلد أمتعنا به ... حيناً وعاد به إلى رضوانه
للنيل شاد بشعره ما لم يشد ... فرعون والهرمان من بنيانه
من كل بيت في السما شرفاته ... تتلألأ الأضواء في أركانه
يبني الفراعنة الشداد أساسه ... ويحار ذو القرنين في جدرانه
شعر إذا غنى به لم يبق من ... لم يروه كالبرق في سريانه
غنى الطروب به على تيشاره ... وترنم المحزون في أحزانه
بهر السنارى حسنه فوددن لو ... سيفت قلائدهن من عقيانه
ويكاد سامعه يفسر لفظه ... من قبل أن يسرى إلى آذانه
تنرى سلاسته الغرير فيفتق ... آثاره سيراً على قضبانه
حتى إذا هد السير كيانه ... حصب الورى بالصلد من صوانه
يا رب ديوان تأنق ربه ... في طبعه وافتن في عنوانه
لا يسمع اليقظان وقع قريضه ... حتى يدب النوم في أجفانه
والشعر إما خالد أو مدرج ... من ليلة الميلاد في أكفانه

قالوا : علي شاعر؟ فأجبت : بل ... سابق عصير الكرم ملء دنانه
قم سائل الفقهاء: هل في شرعهم ... حرج على نحل بخمرة حانه ؟
كم خط من صور الحياة مداده ... ما لم يخط مسطور بدعانه
ببراعة لو أدركت موسى رأى ... من سحرها حاتاب عن ثعبانه
أين القصائد كالطرائد كلها ... بكر ، وبكر الشعر غير هوانه
أحيا لنا ابن ربيعة تشبيبها ... وأعاد للأذهان عهد عبيدانه
شيخ يحس الشيخ عند نسيبه ... بدم الشباب يسيل في شريانه
وإذا تحمس قلت حيدرة انبرى ... تحت المجاجة فوق ظهر حصانه
وإذا تبدى قلت لابس بردة ... قد جاء من وادي العقيق وبانه
وإذا تحضر قلت نسمة روضة ... من فرط رقته وفرط حنانه
يا طالما حمل الأثير نشيده ... وكأنما هو عازف بكمانه
بغداد مصغية إلى أنغامه ... ودمشق راقصة على ميدانه
وكأنما الحرمان عند هتافه ... سمعا بلالاً هاتفاً بأذانه
يبقى على الفاروق تحسبه في ... ذيبان قد أثنى على نعمانه
والملك يظهر بالثناء جلاله ... والشعر مثل الدر في تيجانه